هدية المقتطف

# قطف الثمار

للشاعر الفيلسوف الهندي رابندراناث طاغور

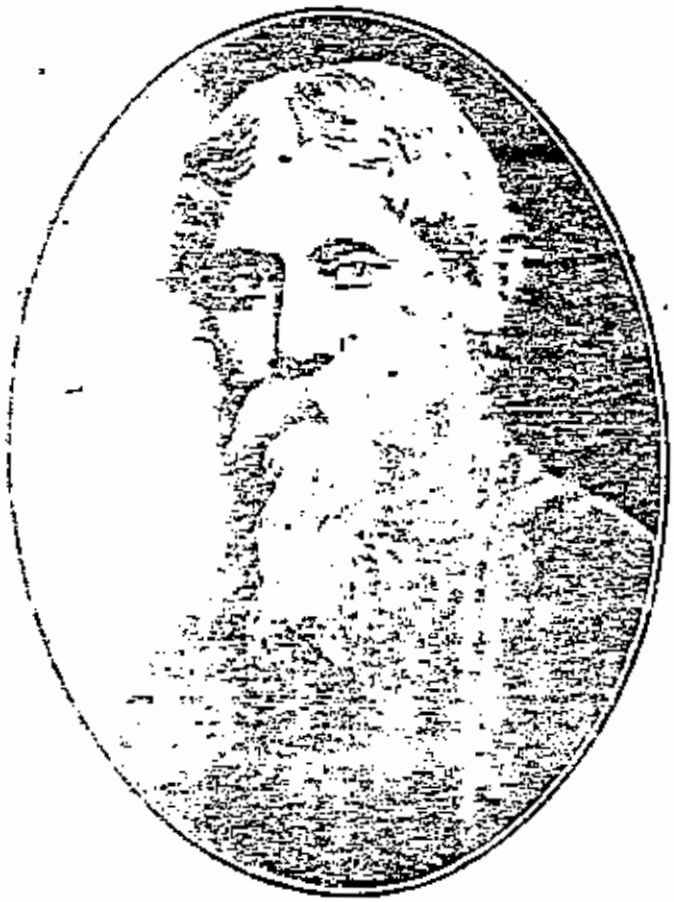

نقلها الى العربية : كامل محمود حبيب

# قطف الثمار

للشاعر انبلسوف لافونتين

— ١ —

سُرِّني فاقطف ثماري وأحلها الى فمك في سلال مملوءة ، ولو ان بعضها فسد والبعض لم ينضج بعد

فالوسم يبدو شريباً بعضها ، وهنا تأوي الراعي الحزين تحت الزيزفون

سُرِّني فاجر على النهر

إن رياح مارس المتناوحة تداعب الأمواج الفائرة فينبعث منها أنين

لقد آنت الحديقة أكلها ، وفي الأشجار الكئيبة يبقى تدلّون صاد وراء من قلب دارك ... من لدن الشاطىء المقفر في الغروب

— ٢ —

في ريعان الشباب كانت حياتي كزهرة ... زهرة نزلت عن ورقة أو ورقتين من ثمارها حين أتيك أقاسي الريب تدفق لدي منها تستحي فتبقى فريدة والآن ، حين أدركت ثمرة الشباب تذوي ، أصبحت حياتي كثمرة ... ثمرة لا نجد ما تضني به ، وهي تنتظر لتهب نفسها كاملة وما تنضم عليه من حلاوة

— ٣ —

أفيضم مهرجان الصيف الأكمام اليانعة خصب وبذر الأوراق الذابلة والأزهار الذاوية

أفيوقع أحلامه على نغم الأمواج المرتفعة خصب ؟

ثم لا يرتل ترانيم الأمواج الهابطة ؟

إن الجوهريزن بساطاً يقف عليه ملكي، وهناك حصوات صابرة تترقب لمسة من ندمه وقليل من يجلسون بازاء سيدي عم الحكماء والعظماء، ولكنهُ يلم الحق بين ذراعيه، وهو اصطفاني لأكون خادمه الى الأبد

— ٤ —

حين استيقظتُ في الصباح ألفيتُ رسالته

فما استطعت أن أفك رموزها لأني أميّ

سأذر الفيلسوف وحده يجلس الى كتابه، ولن أفزعه، فمن يدري لعله لا يستطيع ان يفتح مغاليق هذه الرسالة

* * *

وعني أنس بها حبيبي وأضمها الى صدري

وحين يهدأ الليل، وتغفو الكواكب كوكباً كوكباً، أنشرها على فخذيّ وأجلس في صمت

إن حفيف الأشجار سيقرؤها لي في صوت مرتفع، والغدير المتدافع سيرتلها لي والأفلاك الحكيمة السبعة ستوقع لي لحنها في نصير السماء

لا أستطيع ان أجد ما أفتش عنه، ولا أستطيع أن أفهم ما أريد أن أتعلمه، غير أن هذه الرسالة التي لم تقرأ خلقت من أثقالي، وأحالت خواطري الى أغانٍ

— ٥ —

إن قبضة من تراب تستطيع ان تعلم على آثارك حين لا أدرك معناها

لقد قرأتها من أسطر الغيب لأني الآن أرجح عقلاً من ذي قبل

إنها منقوشة على أوراق الزهر، وهي تلمع بين زبد الموج، ثم هي تتراءى فوق قمم التلال

لقد طويت وجهي عنك. فلما قرأت رسالتك المنثورة فيّ وجدت سرّ شيئاً

— ٦ —

حيث الطريق لاحب، ضلت أنا السبيل

إن طريقاً لم يخطّ على صفحة الماء المنبسط، ولا على السماء الزرقاء

ولكنهُ يتوارى تحت أجنحة الطير، وفي وهج النجوم، وخلف الغصون المتعانقة

وأنا أسأل نفسي: أيحمل في دمه حقيقة الطريق الذي لا يرى

— ٧ —

واأسفاً ! إني لا أستطيع ان أنلبث في داري،فأنا أصبحت غريباً عن وطني، لأن ( الغريب ) الأبدي يناديني وهو يدلف على الطريق

إن وطء قدميه يصك صدري ، تبؤلني !

وإن الرياح تثور والبحر يزمجر

وأنا أطوّح بشواغلي وشكوكي لأنطلق الى المهرجان اللامكاني لأن(الغريب) يناديني وهو يدلف على الطريق

— ٨ —

كن على الأهبة لأن تنطلق على سفنك ، يا قلبي ، ودع سواك يتلكأ

لأنك نوديت من جانب لجة الإصباح

فلا تنتظر شيئاً

* * *

إن غاية الحكيم أن يجد الليل والندى ، أما الزهرة المتفتحة فنحن إلى حرية النور خطم نيودك ، يا قلبي ، وتعال الي

— ٩ —

حينما كنت أضطرب في أضواف كنزي المدّخر . كنت أشعر كأني حشرة تعيش في الظلام وتتغذى عن الثمرة التي فيها ولدت

ثم نزعت عن سجن الثناء هذا

فأنا لا أطمئن إلى السكون المضني لأني أنفض عن الشباب الأبدي ، سأتحلل من كل ما يناقض حياتي ، ومن كل ما لا يشع رقة كما تفيض ابتساماتي

لقد جئت خلال الزمن ، وفي غربتك — يا قلبي — شاعر يمس ويغني وهو في رحلته

— ١٠ —

أنت جذبتني إلى جانبك ، واجلستني أمام الناس في مقام عالٍ فاعترتني هزة الخوف ، فما استطعت أن أنهض لأنطلق الى غايتي ، وبدت في خطواتي سمات الشك والريبة ، خشية أن أدوس على شوكة من أشواك احتقارهم

وأخيراً وجدتُ حريقي

لقد بلغتنا الصيحة ، وارتفعت نفرات نافور الإنذار ، ثم انحطَّ مجلسي الى التراب وانفرج أمامي الطريق

* * *

لقد كانت رغبات السماء تحتزم في جناحيَّ

فاندفعت أريد أن أصاحب نجوم السُّدفة ، وأن أتقمَّص في الظلام الدامس إهاب كحابة صيف تلفها عاصفة ، فهي حين تلقي بناجها الذهبي تسل ساعقة كالسيف على سلسلة البرق

وفي ساعة المرح الطائش ، أنطلق أنا على طريق أطوان الترب ، لأكون الى جانبك فأحيك التحية الأخيرة

* * *

الطفل يجد أمه حين يفلت من يدها

وأنا حين فصلت عنك ، حين نأيتُ عن دارك ، وجدتُ القدرة على أن أنظر إلى وجهك

— ١١ —

هذه القلادة الخلاة تزيني لتبرأ بي

إنها تسحقني حين أعلقها في عنقي ، وهي تخنقني حين أحاول أن أحسنها وهي تعصر عنقي ، وتقلع على أغاني

* * *

أأستطيع أن أحيا لك ، يا إلهي فأجد الأمان

حقاً ، وتدركني عنك من فصل بينك وبيني بحبل من الزهر ، لأني أستشعر الحبل حين ألف أناملك وحدة القلادة الخلاة في عنقي

— ١٢ —

هناك في المنحفض يتناب نور الجوسق في هدوء وصفاء ، ومن فوقه يشرف الشاطئان في عبوس

والهضاب تتسلل عليها ظلماء الغابة ، ومن حوانيها تلتف آثار السيول

هناك ، على الصخرة ، جلس جرفندا ، الأستاذ الأكبر ، يقرأ الأساطير ، ثم أقبل تلميذه راجونات خوراً بزاويه . . . أقبل فانحنى ثم قال « لقد جئتك بهدية صغيرة لا تستحق منك القبول

* * *

قال ذلك ونثر على عيني أستاذه سوارين من ذهب رصع بالأحجار الكريمة فأخذ الأستاذ واحداً وأداره حول أصبعه فانبثت من أحجاره اثنية قرون من الأشعة وعلى حين فجأة أفلت السوار من يده ، واجتاز الشاطىء لينتشر في الماء

فنزع راجونات ما تبقى من ثيابه وراح أسفل الماء ، ثم وثب الى البر

واطمأن الاستاذ الى كتابه ، أما الماء فقد ضمت ما أحدثت واخفته بين طياتها ثم انطلقت وحين اكتمل النهار عاد راجونات الى استاذه متثاقلا يتلمس عرقاً

لقد كان يسيطر عليه الشعر حين قال « يا ذات آمال أن أجد السوار فأنك هديتي الى حيث سقط »

فأخذ الاستاذ السوار الثاني وقذف به الى الماء وهو يقول « أنا هذا »

— ١٣ —

إن الحركة معناها أن أنتباك كل لحظة بموتها الساكن

وأن أخشى لحن وقع تدبيك

فان الذي فلسفة أفلاسك لا ينطلق الى الشاطىء الأمين . .

بل ينشر شراعاً قوياً ويركب الماء الهائج

* * *

إن الذي يذر بابه مفتوحاً وينطلق قدماً يفوز بحبيبك

إنما هو الذي لا يلتفت ليحيي وجه أو ليأسى على خسارته ، ثم تذكر فلا يعد

ثم حصونه لأنه ... بها ساكن

— ١٤ —

إن يديك ستحيوان بعيني الحزين من الحياة . هكذا وعدتني

لهذا فنورك يلمع في عيوني

إني أخشى أن يقودني سواك حين أخطئك وأنت تنتظر على حيد الطريق لتكون قائدي

إني أنطلق الى حيث يحلو لي لكي تجذبك حاقتي الى بي
لأنك وعدتني بأن يديك ستجوانني بتصبي الجيل في الحياة

— ١٥ —

إن لفتك سهلة ، يا إلهي ، وهي على نقيض لغة الذين يتحدثون عنك
إني أعي حديث كواكبك وصمت أشجارك
وأنا أثق بأن قلبي سيتفتح كالزهرة ، وأن حياتي أزعت نفسها من ينبوع حبي

* * *

وأغانيك ، كأنها طيور الجهات الثلجية النائية ، تهدف تريد أن تشيد أعشاشها في قلبي لتستشعر دفء أبريل ، وأنا أرتب بهجة هذا الفصل في رضا

— ١٦ —

لقد اجتمعوا على قارعة الطريق فانطلقوا يغنون عنك في الزقاق الضيق ، غير أني ذهبت أضرب في تيهاء الظلام لأني كنت في عماية من أجرك
إني لم أعلم العلم فيغذيني غرامي الخوف منك في الظلام ، لهذا دلفت إلى غرفة بابك في غير رقبة .
فأنبي الفيلسوف وأمرني أن آتي لأني لم أطل عن طريق الزقاق الضيق وانقلبت في ريب ، غير أنك أمسكت بي في سرعة ، فانطلق احتجاجهم صارخاً

— ١٧ —

لقد أخرجت مصباحي الأرضي وهادية ، تقولوا ، أيها الأطفال ، لأي لكم الطريق ؟
ثم عدت والليل ما يزال في ظلماه ، والطريق من ورائي ساكن . . . عدت وأنا أنادي « أميري لي » ، أيها النار ، فلقد سقط مصباحي الأرضي في التراب فتحطم ؟

— ١٨ —

لا ، ليس لك أن تفتح الكم عن زهرة
هز الكم أو ادفنه فانه يعجزك أن تجعل منه زهرة
إن لسانك تدلسه ، وأنت تمزق أوراقه وتقذف بها الى الرغام

ثم لا يبدو اللون ولا ينتشر العطر
آه ، إنهُ لست أنت الذي تنتج الكم عن زهرة

* * *

إن الذي يستطيع أن ينتج الكم يفعل ذلك في سهولة
إنهُ يحبوها بنظرة واحدة فيتدفق رحيق الحياة في عروقها
وعندما يرسل أنفاسه تنشر الزهرة أجنحتها وتحلق في هبة الريح
ثم يشرق اللون فيها كأنهُ هوى القلب ، وتنبعث من العطر حلاوة خفية
لأن الذي يستطيع أن ينتج الكم يفعل ذلك في سهولة

—١٩—

لقد تطلب سوداس البستاني آخر زهرة من زهرات النرجس استطاعت أن تفلت من بين يدي نسمة الشتاء، وانطلق الى باب القصر ليبيع تلك الزهرة.

وهناك اعترضهُ سائح فقال له « بعني ثمن آخر زهرة من زهرات النرجس فأنا أريد أن أقدمها قرباناً لإلهي بوذا »

فقال سوداس « إذا دفعت ذهباً كثيراً فهي لك »

فدفع السائح ما طلب البستاني

* * *

وفي هذه الأثناء أقبل الملك يبتغي الزهرة ، لأنهُ كان في طريقه الى الإله بوذا ، أقبل وهو يحدث نفسه « ما جمل أن أضع عند قدميه زهرة من زهرات النرجس تفتحت في الشتاء »

وحين قال البستاني انهُ تقاضى ثمنها ذهباً ، ضاعف الملك عشرة ، غير أن السائح خالف الملك

وزاءى للبستاني الثمن الوفاء الذي يستطيع أن يظفر به من ذلك الذي يتطاحنان من أجله ، فاحنى ثم قال « إني لا أستطيع أن أبيع هذه الزهرة »

وفي ظل غابة الماجو الصامت ، بإزاء سور المدينة ، وقف سوداس أمام الإله بوذا ... بوذا الذي ارتسمت على شفتيه سمات صمت الاخلاص ، ومن عليه شمت علامات السلام كأنها نجم الصباح غسله أندى الطريف

فنظر سوداس في وجهه ، ووضع الزهرة عند قدميه ، ثم انحنى حتى مس جبينه الثرى

فابتسم بوذا وقال « ماذا تأمل ، يا بني ؟ »

فهتف سوداس قائلاً « الغبطة الضئيلة من نعيمك ! »

— ٢٠ —

اجعلني شاعرك ، أيها الليل ، أيها الليل المتسع !

إن ناساً كثيرين نشؤا في ظلامك أجيالاً صامتين ، فدعني أرتل أغانيهم

خذني على عربتك وانطلق في غير جلبة من دنيا الى دنيا . أنت يا مليكاً في قصر الزمان . انت أيها الجمال المظلم

إن كثيراً من العقول المرتابة تسللت الى فراشك ، وجاءت في آخاء دارك المعتمة يفتشون عن هدى

إن كثيراً من القلوب ، التي أصابها سهم المرح المنطلق من يد الله ، تفجرت عن أغاني مطربة ترنح لها الظلماء من قرارها

وإن تلك الأرواح البغطى تحت أضواء النجوم ، تعدو — في دعة — في الكنز الذي عثرت عليه على حين فجأة

فاجعلني شاعرهم ، أيها الليل ... شاعر صمتك العميق

— ٢١ —

سألاقي — يوماً — أنا والحياة التي تأرثت فيّ ، أنا والمرح الذي يتوارى في حياتي . هذا رغم ان الأيام تشوه طريقي بترابها الفث

لقد عرفتها في لحات ، وأغاسها المضطربة تغمرني فتأرج بها خواطري ساعة من زمان

سألاقي — يوماً — أنا والمرح الثاني عني ، المرح الثاوي خلف أستار النور ... ثم أقف في الوحدة الفياضة حيث تبدو الأشياء طرية كيوم خلقت

— ٢٢ —

إن هذا الصباح الخريفي يضيء فيض النور، فاذا رأيت أحلامك تتثاءب وتتمطر فأعرني نايك ساعة

سأعزف عليه لحناً كما يشتهي هوى . . . فالآن أخذه على حجري ، وألمسه بشفتي ، ثم أضمه الى جانبي على الحشائش

غير أني سأقطف الزهور في عمق الليل وحدائقه لأهيء منها بعض الأكاليل، ثم أغمسها بالمطر ، وأبقيها هناك على ضوء المصباح

ثم أقبل في الظلماء لأردّ لك نايك

فتعزف أنت عليه لحن نصف الليل على حين يضطرب الهلال وحيداً بين النجوم

— ٢٣ —

إن عقل الشاعر يسبح ويرقص على أمواج الحياة، بين زئير الرعد وخرير الماء

والآن حين تنطلق الشمس الى خدرها وتسدل الأستار المنضدة على البحر كما أسدل جفن على عين مهباة . . . حين ذاك تحين له أن يسند مقلته ويرسل خواطره لتتسمر في أعماق سر السكون الأبدي

— ٢٤ —

الليل ساج ، وجثتك في سكون حياتي عميقة

فاستيقظي ، يا آلام الحب ، لأني لا أعرف كيف أفتح الباب فوقتئذ أزيله

إن الزمن يمشي ، والكواكب ترتب ، والرياح ماشية . ولكن هذا السكوت ثقيل على قلبي

فاستيقظ، أيها الحب، استيقظ، وارجع كأسي الفارغة وأزح الليل بأنفاسك الثائبة

— ٢٥ —

إن ديك الصباح يصيح

لقد راح يتحدث عن الصباح قبل أن يتصدع عامود الظلام . . . حين كان مارد الليل ما يفتأ يلقف السماء في ملاءته السوداء الباردة

* * *

خبّرني يا ديك الصباح . كيف استطاع رسول للشرق أن يجد طريقه الى

أحلامك من خلال طيات ظلام السماء وظلام أوراق الشجر
إن العالم لا يكاد يصدقك حين تصيح «ان الشمس تجري الينا ، وان الليل يتداعى»
فاستيقظ أيها النائم
احسر عن جبينك وانتظر أول لمحات الضوء . وغرد في مرح مع طير الصباح

— ٢٦ —

إن الضحاة الذي فيّ يرفع يديه الضعيفتين صوب السماء الصافية ، ويهمس بصوته المرتعش في أذن الليل
لقد كانت صلواته لنظام الأعمى المنشور كلمة إله سقط في سماء موحشة أقذرت من الأمل
ولكن صرخة الرغبة تقف نفرات اليأس كما يحوم طائر شجي حول عشه الخالي
وحين يلقي الصباح رحله عند حافة المشرق يهتف الضحاة الذي فيّ
« باركني ، أنا من تبدي الليل الأصم ... الليل ذو الجوف الخاوي »
فيصيح الصباح « أيها الحياة ، أيها النور ، أنا كرسولين ! ويا لما أبهج المرح حين يهتدي اليكما ! »

— ٢٧ —

لقد كان ساتان جالساً على شاطىء نهر الطابع بسح حين أقبل براهمي في أسماله يقول « ساعدني ، فأنا فقير ! »
فأجابه ساتان « إن حسنات الصدقة هي كل ما أملك ، أما أنه فقد نزلت عن كل مالي »
فقال البراهمي « ولكن الإله سيقا أوحى إليّ — فيما يرى النائم — أن أطلق اليك »
وعلى حين فجأة ذكر ساتان انه كان قد التقط حجراً كريماً من بين حصباء الشاطىء ودسه بين ثنايا الرمل ، وفي نفسه ان انساناً سيحتاج اليه
فدنا البراهمي على مكانه ، وراح هذا يبحث عنه
ثم جلس البراهمي على الارض وحده يفكر حتى توارت الشمس بالحجاب

خلف الأشجار ، وحتى أخذ رعاة البقر يتوافدون هم وقطعانهم إلى الدور

فهب يهفو نحو سائلان في أناة ويقول « ياسيدي ، امنحني ذرة من الثراء الذي يزري بكل الثراء الأرضي »

ثم قذف بالحجر الكريم في الماء

— ٢٨ —

إني أهفو نحو بابك في الفينة بعد الفينة ، رافعاً يدي ، سائلاً المزيد والمزيد

وأنت تهب وتهب ، مرة بقدر ومرة في فيض

وأنا آخذ شيئاً وأذر أشياء ، فبعض يثير بكائي وبعض أعيت بي كأنه لعب ، ثم أحطمه حين يتوراني الأين ، ثم تتكدس هداياك حطاماً فتواريك عن الانظار ، غير أن الأمل الدائم يسحق قلبي

إن صيحتي الآن هي : خذ ، أوه خذ

بثوكل ما في جعبة هذا السائل ، وأطفئ مصباح هذا الحارس المضني ، وخذ يدي وارفعني من بين أكداس هداياك العارية اللانهائية ... ارفعني لأكون في حضرتك الخالدة

— ٢٩ —

لقد قذفت بي بين هؤلاء المطحونين

وأنا أعرف أنه ليس لي أن أرتاح ولا أن أفزع عن الخاطر

فسأفتش في الوهدة ولو أني قد أصغى إلى قرارها

وسأقاسي بحياتي

* * *

سأخاطر بكل ما لدي من مال ، وحين أخسر آخر فلس سأخاطر بنفسي ، إذن يتراءى لي أني سأربح من خلال خلتي الناجحة

— ٣٠ —

لقد شاعت ابتسامة السرور على وجه السماء حين ألقيت قلبي أسماله وأرسلته إلى الطريق يتسجدي

لقد انطلق من باب الى باب — يتكفف ، وكلما أوشكت قبضته أن تفهق وجدت من يسرقها

وفي آخر اليوم المقضي أقبل لدى باب قصرك بحمل قصعته الباسمة، فجئت أنت اليه وأمسكت بيده وأجلسته بجانبك على العرش

— ٣١ —

حين جرفت الجماعة شراشفها، قال بوذا يخاطب تلاميذه « من منكم يستطيع أن يطعم الفرقى ؟ »

فصفّر راتاكر الصيرفي خدّه وقال « ان خزائني لتنوء بحاجات الجميع »

وقال جايسن قائد جيش الملك « يودي أن أبذل دمه حياتي ، ولكن داري ليس فيها من الغذاء ما يكفي »

وقال دارمايل في أنين ، على حين أنه يملك الضياع الواسعة « إن شيطان الجدب قد ضرب ضياعي بجفاف فلست أدري كيف أدفع ضرائب الملك »

فبيت سوريا ابنة الكحاذ

واختت أمام الجمع وقالت في سذاجة « سأقوم أنا على حاجات الجميع »

فضاع الجميع في دهشة « كيف ! كيف تستطيعين أن تفي بهذا النذر ؟ »

فقالت سوريا « إني أشدكم فقراً ، تلك هي قوتي ، إني أجد خزائني ومتاعي في كل بيت من بيوتكم »

— ٣٢ —

لقد كنت أجهل ما أملك ، لهذا خيل الي — حين طلب مني الخراج — اني أستطيع أن أتوارى فلا أدفع ديني

فطرت ثم طرت أستتر في مشاغل النهار وأحلام الليل

غير أن رغباته انتالت عليّ كما ترتد نفسي

لهذا أدركت أنه يعرفني ، وأن مكاناً على الأرض ليس لي وحدي

* * *

والآن تدفعني الرغبة الى أن ألقي بكل ما أملك عند قدميه لأجد مكاني في ملكه

— ٣٣ —

حينما عنّ لي أن أصنع لك من حياتي تمثالاً يتعبده الناس . . . حينذاك جئت

الاتراب والرغبات وأوهامي المتألقة وأحلامي

وحين سألتك أن تهيء من حياتي تمثالاً تبعثه من قبلك ليتان رصالا . . .
حينذاك جئت بالنار والقوة والحقيقة والحب والسلام

— ٣٤ —

لقد رأى الخادم يحدث سيده الملك « ياسيدي ، إن الأب ناروتام لم يدخل معبدك الملوكي أبداً . . .

« ولكنه يرتل صلوات الله تحت شجرة على حيد الطريق والتف حوله كثير من المصلين

« إنهم يتزاحمون حوله كأنهم النحل حول زهرة الربيع تتغذى من حين قد أعملوا جرة إنسان الذهبية »

فتضرم الملك غيظاً وانطلق الى حيث ناروتام يجلس تحت الشجرة

ثم سأله « يا أبت لماذا نزعت عن معبدي ذي القبة الذهبية لتجلس هنا تحت الثرى تستدعي رضا الله ؟ »

فأجابه ناروتام « لأن الله ليس في معبدك »

فتبسم الملك ثم قال « أتعلم أن عشرين مليوناً من الجنيهات الذهبية أنفقت في إقامة هذه المعبد الفخم ، وهي قد نذرت لسيادة الرخص ؟ »

* * *

فأجاب ناروتام « نعم ، إني أعرف حق المعرفة كم كان في النفقة التي أحرزت فيها بيوت الآلاف من رجالك . فاسمع يا ملك ، وسيأتي اليوم الذي يعرف فيه الناس أن هذا المعبد الذي بنى من أجر المعبد الجميل سيشيد في كل
« ثم أخذ يكلمه بين من لا يسمعون من حيد الطريق تحت الشجرة
« لبثت كل هذه الأشجار المضيئة خلوية من كل شيء إلا لغني يكرمه »
فصاح الملك في ثورة « إذهب بعيداً عن ملكي »
فأجاب النفس في هدوء « لا أضير ، فأنت تنفي حيث نفيت الرب »